الفنون العربية في شهر

أزمة المسرح في الإقليم السوري

بقلم شريف الراس

قبل الوحدة ما كان يدور أي حديث حول المسرح في هذا الاقليم . اما الفنون بوجه عام فقد كان اجرا مظاهر نشاطها معرض سنوي للرسم ، هو حصيلة طبيعية لهواية معلمي هذا الفن في المدارس . ثم صمت مطبق بعد ذلك ، وبعض محاولات متناثرة يائسة لانتاج شيء اولي في الفنون الاخرى .. وعموما فقد كانت الفنون لا تزال بعيدة عن الاهتمام في هذا الاقليم ، وكل ما استطاعت موجه البعث الاجتماعي العارمة ان تفعله هو انها غيرت وجهة نظر فئات من المثقفين ازاء « الفن » وبشرت به وسيلة هامة من وسائل معركة التطور والتفتح والازدهار ، ومظهرا طبيعيا من مظاهر اليقظة القومية والسمو الاجتماعي .. ووقفت المحاولات عند هذا الحد ، لان عنف المعركة السياسية كان يقتضي « تعليق » الامور الاخرى جميعا . كان الناس في بلادنا ، قبل الوحدة، يؤجلون مشاكلهم الشخصية، ويعلقون قضية خبزهم اليومي ، الى حين ، كيما يتاح لهم ان يعبئوا كل قواهم لدعم المعركة السياسية التحررية ولحل الازمات القومية المتتالية . اذ كان الاحساس العام يشير الى ان قضية العرب هي قضية « وجود » لا قضية « تحسين الوجود » . ولهذا كانت المشاغل السياسية تستنفد اهتمام الفلاح وراء محراثه ، والعامل في دكانه ، والطالب فوق مقعده الخشبي ، صباح مساء ، على نفس الاهمية والخطورة التي تلعبها السياسة في ضمائر القادة وعقولهم ونفوسهم جميعا ... ولهذا لم يكن احد يحس بأزمة المسرح عندنا ، اذ كان المسرح ، لا يزال عنوانا من العناوين الكبيرة الكثيرة التي لا تزال مؤجلة الى حين الحرية واستقرار الوجود .

اما بعد الوحدة ، فقد اختلفت الاوضاع تماما . ان الشعب الذي كان يراقب ، بخوف ، سياسييه والمشرفين على مصيره ، أصبح اليوم في نفس الصف الذي يسير فيه قادته ، يسير وراءهم جنديا في رسالة . لقد اختلفت الاوضاع اذن. والقفزة الهائلة التي قفزها اقليمنا باتحاده مع « مصر » لم تكن مفاجأة سياسية لشعبنا ، اذ هي ثمرة طبيعية لنضاله الطويل القائم على تصميم ووجهة نظر اصيلين ومقدسين، بل كانت الوحدة مفاجأة لشعبنا اي مفاجأة حين حطمت ـ انسجاما مع منطقها التطوري ـ كل التركيبات الاجتماعية الرجعية السابقة ، وطرحت معركة تحسين الوجود الى ساحة النشاط العام . او بتعبير اخر، معركة تغيير الاوضاع السابقة تغييرا تقدميا شاملا . وبذلك وجد الشعب امامه قضاياه الكثيرة التي كان يضطر لتأجيلها وتعليقها: مشكلة الارض، والتخلف الصناعي ، والفوضى الاقتصادية ، والتأخر الثقافي والفني ... ومنذ شرارة الوحدة الاولى ، وضعت الدولة الحلول لهذه القضايا ، وبادر الشعب لتبني هذه الحلول والاسهام في تنفيذها : الاصلاح الزراعي ، قانون العمل التصنيع الواسع ، مساهمة الشعب في تمويل المشاريع الإنشائية ، تطوير نظم التربية والتعليم .. اما في مجال الفنون ، فقد اوجدت الدولة وزارة الثقافة والارشاد القومي ، وكلفتها بشؤون الفنون ورعايتها والنهوض بها . وفي الوقت ذاته رأينا حركة بعث فنية واسعة بدأت تظهر في الاوساط الشعبية ، وخصوصا لدى الفئات المعنية بالمسرح، اذ نشطت الجمعيات والاندية والمدارس نشاطا مسرحيا غير معهود ، ان لم نقل نشاطا جديدا لم يعرفه هذا الاقليم العربي قبل اليوم . وان هذا النشاط المسرحي ، لكونه مطلع الفن العربي الناشيء عندنا ، وعلى الرغم مما في تباشيره من ملامح الخير والطاقات الفنية الغنية ، فانه يشير بوضوح الى معالم ازمة المسرح ، ويدعو الى تبينها ووعيها وايجاد الحلول المناسبة لها، ما دمنا بعد في بدء الطريق .

واول معالم ازمة المسرح ان هذه البلاد خالية من اي مسرح . وربما كانت هذه الواقعية تدل على نوعية الحكم في عهود ما قبل الوحدة .ولكن هذه الدلالة لا تعنينا اليوم قدر ما يعنينا ان نذكر الصعوبات الحاسمة التي تواجه فرقا فنية متحمسة ، تبحث عن مسرح في طول البلاد وعرضها ، لتقدم عليه انتاجها ومبتكراتها ، فلا تجد الا دورا للسينما فيها من ضيق خشبة المسرح قدر ما في نفوس اصحابها من « روح تشجيعية » تتنافى مع جشعهم التجاري العنيد .

واذا كان خلو البلاد من المسرح مظهرا خارجيا من مظاهر الازمة ، فان من اخطر مظاهر ازمة المسرح عندنا واكثرها صميمية هذا الانقطاع التام بين الفنانين الممثلين وبين الكتاب الادباء على اختلاف اتجاهاتهم ونزعاتهم الثقافية . ففي الوقت الذي يتبنى فيه هؤلاء الادباء وجهات نظر تقدمية في الفن عموما ـ الفن في خدمة الشعب والقضية القومية ـ وفي المسرح خصوصا ، وفي الوقت الذي يتحدثون فيه عن الدور الهام الذي لعبه المسرح في معارك تحرير الصير وتصويرها،فانهم في اقليمنا يتحاشون العمل المسرحي ويبتعدون عن الانتاج الادبي الصالح للتمثيل والاذاعة ، ليكتفوا بتداول نقد غبي كسول وراء زجاج المقاهي متبل ببعض التعليقات الساخرة الهازئة بالفنانين ـ ويسمونهم بالمهرجين عادة ـ . وربما كان موقف المثقفين هذا ـ وانا اتهم جنود الادب المسؤول منهم بوجه خاص ـ من بقايا مواقف الماضي السلبية او الاصطفالية . وربما كان من دواعي اتخاذهم هذا

الموقف انهم يرون من « العيب » والعار عليهم ان يكتبوا مسرحيات لفرق فنية اقل مستوى من فرق الاوبرا العالمية التي يقرأون اخبارها في الصحف وكيفما كان الامر فان اشكال النشاط المسرحي التي اتيح لنا ان نشاهدها في موسم اعياد الوحدة تدل على مبلغ خطأ هؤلاء الادباء، ومدى انهزاميتهم من اداء واجب عظيم الاهمية تقع مسؤوليته على عواتقهم دون سواهم ، ويدركون هم قبل سواهم مقدار تناقضهم مع ايمانهم العقائدي . اذ ان الفرق المسرحية كانت لا تكتفي بالاداء التمثيلي وما يقتضيه من شؤون الاخراج والديكور والموسيقى التصويري فحسب ، بل كانت تضطر لان تمارس بنفسها وظيفة تاليف الرواية ووضع حوارها . وهنا تصرخ الكارثة.

اذ لا شك في ان بعض الفنانين من ابناء هذا الاقليم قد بلغوا مرتبة رفيعة في فن التمثيل الراقي ، كالسيد عبد اللطيف فتحي والسيد عمر حجو ، وذلك بفضل دأبهم الشخصي على صقل هوايتهم وتهذيبها وبفضل التجارب المريرة التي عانوها . ولكنه لا يحق لنا ان نطلب منهم ان يكونوا مجيدين في تأليف الروايات ووضع حوار لها ، ما دمنا نعرف انهم فنانون في التمثيل فقط ولم يتح لهم ان يكونوا ملهمين في الادب .

ماذا نتج عن ذلك ؟

الحقيقة ان اكثر الاعمال المسرحية التي شاهدناها كانت ـ بمعزل عن قوة الاداء في التمثيل ـ ضعيفة ادبيا الى حد الوهن المطلق ، خاطئة اجتماعيا الى حد الذهول المرضي .. ولا حاجة بنا لان نرجع ذلك الصنف وذلك الخطأ الى الامية الثقافية والفكرية التي تسم الفنانين المسرحيين ، ولا يحق لنا ان نعيب عليهم هذا الضعف وهذه الامية ما دمنا لا نستطيع ان نفرض عليهم العبقرية الادبية .

فالمسرحية عندنا كانت ولا تزال معروضة باللغة العامية ، وهذا من اكبر عيوب مسرحنا الناشيء واخطرها شذوذا وانحرافا عن الاتجاه القومي الشامل الذي يطبع كل مظهر من مظاهر نشاطنا البشري ... والفكر الكامن وراء هذه المسرحيات فكرشاذ غريب عن واقعنا الاجتماعي النابض بالمعاني الايجابية الجريئة والنظم التقدمية البناءة . انه فكر هزلي رخيص مضحك ، لا يجد اية غضاضة في ان يتخذ من روايات نجيب الريحاني مثلا اعلى له ولمبتكراته . وهذا اتجاه خطر وخيم العاقبة ايضا . اذ ان الفكاهة التخديرية لم تعد تنسجم مع واقعنا الاجتماعي ، بعد ان اتجه الشعب كله للمعقولية والعدالة والديمقراطية .

اذن فأزمة المسرح الناشيء عندنا تتلخص في مظاهر ثلاثة : خلو الاقليم من مسرح ، وقيام هذا الفن على جهود فردية مهددة بالفشل والجوع الحقيقي ، وانهزام الادباء المسؤولين من واجب تغذية المسرح الناشيء

فما هي الحلول ؟؟

اما انشاء مسرح في هذا الاقليم ، فثمة جهود طيبة لتحقيق ذلك . لا بل ان وزارة الثقافة والارشاد القومي تطمح ـ بالتعاون مع بعض المؤسسات الحكومية الاخرى ـ لانشاء مسرح في كل بلدة ، وتأسيس فرق مسرحية صغيرة للتنقل في الارياف .

واما الموت الذي كان يفتك بمن وهبوا انفسهم ومصائرهم للفن المسرحي، فقد وقف عند حده ، بفضل مبادرة وزارة الثقافة والارشاد القومي الى رعاية الفرق المسرحية ودراسة شؤونها وتشجيع المشتغلين بها ، وامداد الفنانين بالمعونات المالية التي تكفل لهم تحسين اوضاعهم ، ومدهم بالخبراء.

واما تغذية المسرح الناشيء بالادب العربي الملائم ، فهذا من شأن السادة الادباء ، وانا لا اعتقد ان هناك رقعة في العالم تعج بالوقائع الانسانية الفذة المغرية بالمعالجة والعرض المسرحي كرقعة وطننا العربي الكبير ، ولا اعتقد ان هناك شعبا اغنى من شعبنا العربي ، في تاريخه الماضي وواقعه الحاضر ، بالحوادث الرائعة التي تصلح محورا لعرض أفكار تقدمية على مسرح تقدمي .

شريف الراس

ظهر حديثاً

كتاب

صرخة الروح

تأليف : زهدي حسن جار الله

« أستاذ علوم »

كتاب عربي ، اجتماعي ، أدبي ، جامع ، يتضمن رسائل من لبنان ، وآراء جريئة في القومية ، والمتنبي ، وابن سيناء ، وأثر العصبية القبلية في أدبنا ، .. ومعالجة دقيقة لنواحي الضعف في المجتمع العربي .

حصيلة ربع قرن لدراسات ومحاضرات .